من فضائل
العمل بالقرآن

د. محمود بن أحمد الدوسري

شبكة الألوكة
www.alukah.net

من فضائل العمل بالقرآن

إنَّ أعظم جزاء ينتظر العامل بالقرآن العظيم هو الجنة. والجنة درجات، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢].

«أي: ولكل عامل في طاعة الله أو معصيته منازلُ ومراتبُ مِنْ عَمَلِه، يُبَلِّغُهُ اللهُ إيَّاه، ويُثيبه بها، إنْ خيراً فخير، وإن شراً فشر»(١).

وقد جاء عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ في الجَنَّة مائَةَ دَرَجَة، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ في سَبِيلِ اللَّه، ما بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كما بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْض، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّة، وأَعْلَى الجَنَّةِ - أُرَاهُ قَالَ: وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، ومِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّة»(٢).

وقد وَعَدَ اللَّه تعالى مَنْ عَمِلَ بالقرآن العظيم أن يُحييه حياةً طَيِّبة في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

«فأخبر سبحانه عن فلاح مَنْ تمسَّك بعهده عِلْماً وعَمَلاً في العاجلة بالحياة الطيبة، وفي الآخرة بأحسن الجزاء، وهذا بعكس مَنْ له المعيشة الضَّنك في الدنيا والبرزخ، ونسيانه في العذاب بالآخرة»(٣).

ولابد لكل مَنْ عَمِلَ صالحاً أن يحييه الله حياةً طَيِّبة بحسب إيمانه وعمله، ولكن **يغلط أكثر الناس في مسمَّى الحياة** حيث يظنونها التَّنعم في أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح أو لذة الرِّياسة والمال والتَّفنن بأنواع الشهوات.

ولاريب أنَّ هذه لذة مشتركة بين الإنسان وبين البهائم، بل قد يكون حَظُّ كثير من البهائم منها أكثر من حظِّ الإنسان، فأين هذه اللذة من اللذة بأمرٍ إذا خالط بشاشتُه القلوبَ سلى عن الأبناءِ والنِّساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن، ورضي بتركها

كلها والخروج منها رأساً، وعَرَّضَ نفسَه لأنواعِ المكاره والمشاقِّ، وهو منشرح الصدر، حتى أَنَّ أحدهم ليتلقى الرُّمح بصدره ويقول: فِزْتُ وربِّ الكعبة، ويستطيل الآخَرُ حياتَه حتى يُلقي قُوتَه من يده، ويقول: إنها لحياة طويلة إن صبرت حتى آكلها ثم يتقدَّم إلى الموت فرحاً مسروراً، ويقولُ الآخَرُ مع فقره: لو عَلِمَ الملوكُ وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف، ويقول الآخَرُ: إنه ليمر بالقلب أوقات ليرقص فيها طرباً، وربما قال بعضهم: إنه لتمرُّ بي أوقاتٌ أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيِّب(٤).

وفضائلُ العمل بالقرآن العظيم كثيرة ومتنوعة، بعضها في الدُّنيا، وبعضها في الآخرة، ومنها ما يأتي:

١- الهداية في الدُّنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

فهذا أَمْرُ تكريمٍ من الله عزَّ وجلَّ لنبيه الكريم محمدٍ ﷺ أن يُبَشِّرَ الذين يستمعون القرآن ثم يقودهم هذا الاستماع إلى العمل به وتطبيقه.

وفي معنى قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ **قولان:**

الأول: يستمعون القولَ على العموم فيتَّبعون القرآن؛ لأنه أحسن الكلام.

الثاني: أَنَّ ﴿الْقَوْلَ﴾ هو القرآن. أي: يستمعون القرآنَ فيتَّبعون بأعمالهم أَحْسَنَه من العفو، والصَّفح، واحتمال الأذى، الذي هو أحسن من الانتصار، ونحو ذلك(٥). كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

ومعنى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾: أي: المُتَّصِفون بهذه الصفة الجليلة -

وهي العمل بكتاب الله - هم الذين هداهم الله تعالى للدِّين الحق، ومحاسن الأمور، فهداهم لأحسن الأخلاق والأعمال، وضَمِنَ لهم ألاَّ يضلوا في الدنيا، ولا يشقوا في الآخرة بسوءِ الحساب.

قال ابن عباس ﷺ: «ضَمِنَ الله تعالى لِمَنْ قرأ القرآنَ وعَملَ بما فيه ألاَّ يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة». ثم تلا قولَه تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣][٦].

وقال أيضاً: «مَنْ قرأ القرآنَ واتَّبَعَ ما فيه، هداه الله مِنَ الضَّلالة، ووقاه يومَ القيامة سُوءَ الحساب». ثُمَّ تلا الآيةَ نفسَها[٧].

ومعنى قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾:

«أي: هم أصحاب العقول السليمة عن معارضة الوهم، ومنازعة الهوى، المستحقون للهداية لاغيرهم، وفيه دلالة على أن الهداية تحصل بِفِعْلِ الله تعالى وقبول النفس»[٨].

فالذي لا يُمَيِّزُ بين الأقوال حسنِها وقبيحِها ليس من أهل العقول السليمة، والذي يميز لكن شهوته تغلبه أحياناً، فيبقى عقله تابعاً لشهوته كان ناقص العقل.

فهؤلاء أهل العقول الزاكية، والفطر المستقيمة من لُبِّهم وحَزْمِهم عرفوا الحَسَنَ وغيرَه فآثروه وتركوا ما سواه، فهذه علامة العقل الصحيح، نسأل اللهَ تعالى أن يجعلنا منهم[٩].

٢- الرَّحمة في الدُّنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

هذه الآية الكريمة تدل دلالةً واضحةً على أَنَّ أقصرَ سبيل وأوضَحَه لنيلِ رحمة اللَّه تعالى هو اتِّباع هذا الكتاب العظيم علماً وعملاً.

ومعنى الآية: إن ﴿هَذَا﴾ الذي تُليت عليكم أوامره ونواهيه ﴿كِتَابٌ﴾ عظيم الشأن، لا يقادر قدره، ﴿أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ لكثرة منافعه الدِّينية والدنيوية.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، **فإنَّ عظمة هذا الكتاب، وكونه منزلاً من اللَّه جلَّ جلالُه، وفيه مافيه من المنافع الدينية والدنيوية، هذا كُلُّه موجب لاتِّباعه والعمل به**(١٠).

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «وافتتاح الجملة باسم الإشارة، وبناءُ الفعلِ عليه، وَجَعْلُ الكتابِ الذي حَقُّه أن يكون مفعولَ ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ مبتدأ، كُلُّ ذلك للاهتمام بالكتابِ والتنويه به، . . .

وتَفْرِيعُ الأمرِ باتِّباعه على كونِه مُنَزَّلاً من الله، وكونِه مباركاً، ظاهر: لأنَّ ما كان كذلك لا يَتردَّدُ أحد في اتِّباعه. . .

ومعنى: ﴿اتَّقُوا﴾ كونوا متَّصفين بالتَّقوى. وهي الأخذُ بِدِين الحقِّ والعملُ به.

وفي قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وَعْدٌ على اتِّباعه، وتعريضٌ بالوعيد بعذاب الدُّنيا والآخرة إن لم يَتَّبعوه»(١١).

فهذا أمر من الله تعالى لعباده أن يَتَّبِعوا هذا الكتاب المبارك، ويعملوا به؛ رجاء أن تنالهم رحمته في الدنيا والآخرة.

٣- الفلاح في الدُّنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فقد شَبَّهُ الله تعالى القرآنَ بالنور الذي يكشف ظلمات الجهل، ويَظْهَرُ في ضوئه الحقُّ، ويتميَّز عن الباطل، ويُميَّز به بين الهدى والضلال، والحَسَن والقبيح. **وشَبَّه حال المقتدي بهدي القرآن، بحال السَّاري في الليل إذا رأى نوراً يلوح له اتَّبعه، لِعِلْمِه اليقيني أنه**

يجد عنده مَنْجَاةً مِنَ المخَاوفِ وأضرارِ السَّير.

فيجب على كل مسلم أن يستضيءَ بنور القرآن العظيم، فيعتقد عقائده، ويحل حلاله، ويُحَرِّم حرامه، ويمتثل أوامره، ويجتنب ما نهى عنه، ويعتبر بقصصه وأمثاله، ولا ينبغي لمسلم بعد هذا كُلِّه أن تعمى بصيرتُه عن هذا النور العظيم(١٢).

فمن استجاب لهذا النور واتَّبعه وعمل بما فيه، فهو المُفلح الفائز بالمطلوب في الدنيا والآخرة، الظَّافر بِخَيرِهما والنَّاجي من شَرِّهما، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المفلحين.

٤- تكفير السَّيِّئات وإصلاح البال.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ «أي: آمنت قلوبُهم وسرائرُهم، وانقادت لشرع الله جوارحُهم وبواطنُهم وظواهرُهم»(١٣).

﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ هذا مِنْ عطف الخاص على العام. «قال سفيان الثوري: يعني لم يخالفوه في شيء»(١٤). ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ «يُريد أَنَّ إيمانهم هو الحقُّ مِنْ ربِّهم، وقيل: أي أَنَّ القرآنَ هو الحقُّ من ربهم، نسخ به ما قبله»(١٥).

وثمرة هذا الإيمان الصحيح، وهذا الاتِّباع الكامل للقرآن والعمل به، أمران عظيمان:

أولهما: تكفير السَّيئات.

﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ «صغارها وكبارها، وإذا كُفِّرت عنهم سيئاتهم نجوا من عذاب الدُّنيا والآخرة»(١٦). «وقيل: سَتَرَ بإيمانِهم وعَمَلِهم الصَّالح ما كان من الكفر والمعاصي لرجوعهم عنها وتوبتهم»(١٧).

ثانيهما: إصلاح البال.

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: «أصلح شأنَهم وحالَهم في الدنيا عند أوليائه، وفي الآخرة أَنْ أَورثهم نعيمَ الأبد، والخلودَ الدَّائم في جناته»(١٨).

وقيل: «أصلح دينَهم، ودياناهم، وقلوبَهم، وأعمالَهم، وأصلح ثوابَهم بتنميته وتزكيته، وأصلح جميعَ أحوالهم»(١٩).

ولاريب أَنَّ إِصلاحَ البالِ نعمةٌ كبرى، ومِنَّةٌ عُظمى، تلي نعمة الإيمان في القَدْر والقيمة والأثر. وفي ذلك اطمئنان لهم، وراحة كبيرة، وثقةٌ بالله تعالى في ثوابهم العاجل والآجل.

ومتى صَلَحَ البال، استقام السُّلوك والعمل، واطمأنَّ القلب، وتنزَّلت عليه السَّكينة، ورضيت النَّفس واستمتعت بالأمن والإيمان، وماذا بعد هذا من نعمةٍ أو متاع(٢٠).

والسبب المباشر لهذا الجزاء المبارك أنهم: ﴿اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ٣].

أي أنهم عملوا بهذا القرآن العظيم الصادر ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ الذي رَبَّاهُم بنعمته، ودَبَّرهم بلطفه، فربَّاهم تعالى بالحقِّ فاتَّبعوه، فعند ذلك صلحت أمورهم.

فلمَّا كانت الغاية المقصودة لهم متعلِّقة بالحقِّ المنسوبِ إلى اللهِ الباقي الحقِّ المبين، كانت الوسيلةُ صالحةً باقياً ثوابُها(٢١).

فهذه هي بعض فضائلِ العمل بالقرآن العظيم، وحُسْنِ الجزاء عليه في الدُّنيا والآخرة، نسأل اللهَ تعالى أن يرزقنا حُسْنَ العملِ بكتابه، وحُسْنَ الجزاءِ على ذلك، إنه سميع مجيب.

الهوامش:

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ٣٨٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله، (٢/ ٨٦٤)، (ح ٢٧٩٠).

(٣) مفتاح دار السعادة، (ص ٤٤).

(٤) انظر: المصدر نفسه، (ص ٣٥-٣٦).

(٥) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، (٣/ ١٩٣).

(٦) انظر: تفسير ابن عطية، (٤/ ٥٢٥).

(٧) انظر: تفسير القرطبي (١١/ ٢٧٥)، تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩).

(٨) تفسير أبي السعود، (٧/ ٢٤٨).

(٩) انظر: تفسير السعدي، (٤/ ٣١٦).

(١٠) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٠١).

(١١) التحرير والتنوير، (٧/ ١٣٣).

(١٢) انظر: أضواء البيان (٧/ ٨٠)، التحرير والتنوير (٨/ ٣١٩).

(١٣) تفسير ابن كثير، (٤/ ١٧٣).

(١٤) تفسير البغوي، (٤/ ١٧٧).

(١٥) تفسير القرطبي، (١٦/ ٢٢٤).

(١٦) تفسير السعدي، (١/ ٧٨٤).

(١٧) الكشاف، (٤/ ٣١٩).

(١٨) تفسير الطبري، (٢٦/ ٣٩).

(١٩) تفسير السعدي، (١/ ٧٨٤).

(٢٠) انظر: في ظلال القرآن، (٦/ ٣٢٨١).

(٢١) انظر: المصدر السابق، والصفحة نفسها.

هذا الكتاب منشور في